الباب السادس

إنسانية شوقى تتغلغل فى كل ما يقع عليه بصره أو يعتز به

كان شوقى أمير الشعراء ، سيداً فى كل مكان يجلس فيه أو يغشاه . برغم ذلك ، رغم هذه الهالة من العظمة التى انحدرت إليه من أصل أثيل ونسب أصيل ، وإحاطة شعره فى كل باب وفن ، وما جدد فيه مما لم يسبقه إليه سابق . رغم كل ذلك فلم يكن فى جيله من أبناء عصره من هو أبعد من الزهو ولا أقرب إلى التواضع منه ، حتى إن جليسه ليشعر مهما قل من شأنه وضؤل خطره – أنه صنوه ونظيره فى القدر والمنزلة ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

وأغلب الظن أن هذه الصفات مردها جميعاً إلى علمه العميق الشامل بحقيقة الدنيا والدهر والناس وضآلة كل هذه المظاهر التى مآلها جميعاً إلى التراب وهو يقول مخاطباً توت عنخ آمون :

أنزلت حفرة هالك أم حجرة الملك المكين
أم فى مكان بين ذ لك يدهش المتأملين ؟

هو من قبور المتلفيـ ـن ومن قصور المترفين
لم يبق غال فى الحضا رة لم يحزه ولا ثمين
ميت تحيط به الحيا ة زمانه معه دفين
وذخـائـر مـن أعصر ولت ومن دنيا ودين
حملت على العجب الزما ن وأهله المستكبرين

وكان من أثر هذه العظمة النفسية ، تلك الأوصاف البارعة اللفظ والمعنى لكل ما يقع عليه بصره . وهو يعتد به لأنه من صنع أهل بلده ومن عجائب الدنيا فى عصر تناقصت فيه العجائب ، ومرد ذلك أيضًا إلى أن إحساسه الوطنى لم يكن إحساس فرد يشعر بعظمة أمة ذات ملايين ، هو مجرد واحد منها ، وله نصيب ضئيل من انعكاس هذه العظمة على أهل بلدها ، بل كان شعوره بعظمة بلده قد أوحى إليه أنه موكل بأن يملأ بالإشادة بتلك العظمة أذن الزمان وسمع الدهر ، ليمشى مزدهياً به فى كل مكان ، وتلك مرتبة فى الشعور الوطنى والاعتزاز بأمجاد بلده ، قلما يرقى إليها إلا مشاعر زعماء الوطنية الذين تدفعهم عظمة بلدهم إلى أن يندفعوا فى الارتقاء بهذا الوطن والدفاع عن حياضه والفناء من أجله إن دعا داعى الوطن .

وهو إلى جانب الاعتزاز والاعتداد بوطنه ، كان شديد الحب للفن ، والولوع به مرسوماً أو منحوتاً أو منقوشاً أو مقروءًا أو مسموعاً فى غناء أو نشيد أو ترتيل ، كلفاً بتعرف دقائق كل هذه الفنون ، وهى التى أعانته فى التعمق إلى أغوار ما يصف مما يقع عليه بصره أو يصل إلى أذنه من حديث أو غناء كل هذه

العظائم التى أحاطت بشوقى ، كان من شأنها أن تدير رءوس بعض ضعاف النفوس ، إلا أن شوقى كان دائم الإغضاء عما يفد عن خلق صديقه فى ثورة الغضب ، أو إفراط الدالة ، أو بادرة الهفوة ، باسطاً له العذر ، مغضياً عن الصغائر ؛ حتى ليحس صديقه أنه لم يأت ما يقتضى العتاب عليه .

وكان ألد خصومه كذلك ، فى أمن من كيده ، عجزاً عن ذلك ، بل محافظة وقدرة منه على ما يقتضيه شرف الخصومة وقواعد الأدب فيما جل وهان .

وكأنما قد ركبت فى بصره (أشعة ليزر) التى تكشف عن أقصى أغوار ما يختفى تحت باطن الأرض أو داخل جدار سميك حصين ، وبهذه الموهبة التى حباها به الله فوق ما حباه من الفكر المصقول واللفظ المتميز ، كان شوقى إذا وصف أو اعتز أو تباهى ، ينثر الدر المنظوم فى شعر جزل ، عميق المعنى ، رقيق العبارة موسيقى الجرس .

* * *

نحن الآن نريد أن نؤيد من خلال شعر شوقى ما سبق أن أوردناه فيما سلف ونمعن الفكر فيما يصل إليه فكره وبصيرته عندما يتغنى فى قصيدة (توت عنخ آمون) بمجد الأولين وبمجد بلده العزيز المكين . فهو عندما يبدأها بمخاطبة (ليوشع) فى قوله : « فتى يا أخت يوشع خبرينا » ، إنما يذكر قصة غابرة ليوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام ، واستيقافه الشمس .

لقد رُوِىَ أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب ، خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم

فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

يقول شوقى :

قفى يا أخت (يوشع) خبرينا أحاديث القرون الغابرينا
وقصى من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا

ثم يمضى ليصف عواهل وملوك ذلك الزمن :

فكانوا الشهب حين الأرض ليل وحين الناس جد مضللينا
مشت بمسارهم فى الأرض (روما) ومن أنوارهم قبست (أثينا)
ملوك الدهر بالوادى أقاموا على (وادى الملوك) محجبينا
فرب مصفد منهم وكانت تساق له الملوك مصفدينا
إذا عمدوا لمأثرة أعدوا لها الإتقان والخلق المتينا
وسر العبقرية حين يسرى فينتظم الصنائع والفنونا
وآثار الرجال إذا تناهت إلى التاريخ خير الحاكمينا
وكان العز حليته وكانت قوائمه الكتائب والسفينا
وتاج من فرائده (ابن سيتى) ومن خرزاته (خوفو) و (مينا)

وكان رمسيس يكنى بابن سيتى أما رمسيس فهو رمسيس الثانى المعروف بسوزستريس ، ويلقب عندما يرد ذكره بالأكبر ، لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة . وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار القديمة والعمائر المشهورة التى حملت اسمه ورسمه .

ويتنقل كما ينتقل الطائر الغريد بين أطلال يصفها بالعظمة ، ويضفى عليها من عظمة شعره ما يكسبها الجلال والخلود .

نحن الآن عند (توت عنخ آمون) فنرى شوقى أمام هذه العظمة عظيماً عالى القدر ، بديع الوصف ، عميق المعرفة بكل ما يدق على الأفهام :

خليلى اهبطا الوادى وميلا ... إلى غرف الشموس الغابرينا
وسيرا فى محاجرهم رويداً ... وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا ... رفات المجد من (توتنخمينا)
وقبراً كاد من حسن وطيب ... يضىء حجارة ويضوع طينا
يخال لروعة التاريخ قُدت ... جنادله العلا من (طورسينا)
وكان نزيله بالملك يدعى ... فصار يلقب الكنز الثمينا
وقوماً هاتفين به ولكن ... كما كان الأوائل يهتفونا
فثم جلالة قرت ورامت ... على مر القرون الأربعينا
جلال الملك أيام وتمضى ... ولا يمضى جلال الخالدينا

ولم يفته وهو الشاعر اللبق اللماح بعد أن طار بهذا الفرعون إلى أعلى الذرى وأسكنه أطيب الجنات بالمديح والثناء ، لم يفته أن يذكر بالبعث والنشور ، فقد تغلبت إنسانية شوقى على افتخاره بآثار بلده وفراعينها ، فمضى يقول :

سللت من الحفائر قبل يوم ... ينسل من التراب الهامدينا
فإن تك عند بعث فيه شك ... فإن وراءه البعث اليقينا

ولو لم يعصموك لكان خيراً كفى بالموت معتصماً حصينا
يُضَرُّ أخو الحياة وليس شيء بضائره إذا صحب المنونا
زمان الفرد يا (فرعون) ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

وكثيراً ، ما كان يشيد شوقى بالشورى وبالبرلمان بسبب تقديسه لحرية الرأى . وإنه فى إحدى قصائده يقول بمناسبة افتتاح أول برلمان فى مصر وكان يوافق افتتاحه يوم السبت الموافق ١٥ مارس ١٩٢٤ :

مصر إذا ما راجعت أيامها لم تلق للسبت العظيم مثيلا
(البرلمان) غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظليلا

* * *

لعل من أروع ما نظم شوقى ، على روعة كل ما نظم ، نظمه فى نهر النيل كان قد انعقد فى (أثينا) باليونان مؤتمر للمستشرقين فى أوائل العشرينات . ولم يستطع شوقى أن يلبى الدعوة إليه . وكان يخص الأستاذ (مرجليوث) مدرس اللغة العربية فى جامعة أكسفورد بود وتقدير وعرفان . فأرسل إليه قصيدة النيل لتلقى نيابة عنه فى المؤتمر وقد أرفقها بكتاب إليه جاء فيه :

« الشعر كالأحلام . تدخل على المسرور الكرى . وتكثر على المحزون فى السرى وقريحة الشاعر كعين صاحب الأيام . عندها للحزن عبرة . وللسرور عبرة . وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة . نظمتها تغنياً بمحاسن الماضى وتقييداً لمآثر الآباء . وقضاءً لحق (النيل) الأسعد الأمجد وأبعثها إليك عرفاناً لفضلك على

لغة العرب وما أنفقت من شباب وكهولة فى إحياء علومها ونشر آدابها وإلقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروساً نافعة على أنبل شباب العصر . فى أعظم جامعات العالم» :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق

ثم يمضى ليصف لون مائه الذى يصبغه الطمى ليقول :

وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجاً إذا فارقتها ... فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق
فى كل آونة تبدل صبغة ... عجباً وأنت الصابغ المتأنق
تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق ... بالواردين ولإخوانك ينفسق
والماء تسكبه فيسيل عسجداً ... والأرض تغرقها فيحيا المغرق
يتقبل الوادى الحياة كريمة ... من راحتيك عميمة تتدفق
أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ... ونباتها حسن عليك مخلق
وُلدت فكنت المهد ثم ترعرعت ... فأظلها منك الحنى المشفق
ملأت ديارك حكمة ، مأثورها ... فى الصخر والبردى الكريم منبق[1]
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى ... يسعى لها مغرب ومشرق

---

(١) منبق : أى مصطف .

إننا نرى شوقى أمام هذه القصيدة العصماء ، التى تعز على السابقين واللاحقين ، وكأنه يقف أمام عاهل عظيم وملك مظفر ، يحوطه الجلال ، ويتيه بعزه وقوته وثراه ، ينشد هذه القصيدة الجليلة التى تربى أبياتها على المائة والخمسين بيتاً ، كأنما النيل وهو يسرى بين شاطئيه جذلان وفرحاً ، تهتز جوانبه ويترقرق مرسلاً أحلى الخرير ، ليتجاوب مع هذا المديح العلوى فى رفعته ، والفريد فى صنعته والإنسانى فى ثنائه وتقديره .

* * *